كان الطيران بين أذرع «المدرهة» خصوصية يمنية مختلفة، فهو ليس للتسلية، كان تعبير حب، ومساحة لمعالجة أشواقنا لحجيج بيت الله الحرام حتى يعودوا

استعادة أراجيح الماضي

تحقيق/محمد الظاهري

□ توقفت أراجيح صنعاء أمس - أو هكذا يفترض - عن ممارسة الحب والشوق بعد أن بدأ الحجّاج يعودون بسلامة الله تعالى، أو هكذا كان يحدث في الماضي.

كان اليمنيون ينصبون الأراجيح كلما سافر حاج، ويظلون يتأرجحون ويبتهلون إلى الله تعالى أن يعيد حاجهم إليهم سالماً.

ولا تتوقف «المداره» عن الطيران في أفنية المنازل أو ساحات القرى حتى يعود الحاج سالماً معافى، وكان الطقس الصنعاني يبدأ مطلع ذي القعدة، ولا يتوقف قبل انقضاء ذي الحجّة.

وقد ساهمت وسائل الاتصال الحديثة في اختصار زمن الأراجيح حتى أنه بات مهدداً بالاندثار، لولا بعض بيوت قليلة في صنعاء القديمة ما زالت تحافظ على هذه الطقوس.

ما تبقى تغير كثيراً عن النسخة الأصلية، حتى أنه لم يبق من تلك الطقوس عند البعض سوى أشرطة كاسيت مسجلة لأناشيد «المدرهة» تُسمع في السيارة التي تقل الحاج إلى المطار.

عودة الماضي

□ مؤخراً عادت هذه الطقوس بردائها في مهرجان نظمه بيت الموروث الشعبي الذي تديره إحدى المهتمات بالموروث الشعبي اليمني، أروى عبده عثمان، واشترك معها في التنظيم مؤسسة حماية الآثار والتراث الثقافي.

لقد تمت استعادة أراجيح الماضي، وكانت الفعالية عودة مؤثرة إلى أجزاء جميلة منّا، وكشفت فعاليات المهرجان عن الكثير من تفاصيل المعلومات التي لم تعد عند كثيرين ويجهلها معظم الحاضر.

في واحدة من لقْتات المهرجان إشارة إلى الجزء الأول من كتاب «السلوك» بكسر مؤلفه «البهاء الكندي» الخصوصية الصنعانية للمدرهة، فقد تحدث عن حجّ «الملك السلطان المظفر الرسولي علي بن عمر» عام ٦٥٩هـ، وقيام والي عدن «الجزري» بنصب أرجوحة، وقيام «غالب أعيان عدن» بنفس الشيء.

ويقول الكندي عن المدرهة إنها «شيء يعتاد أهل اليمن عمله لمن حجّ أول حجّة، وعند نصبها إذا كانت لرجل ذي رئاسة قام الشعراء بأشعار يمدحون من أقامها ومن أقيمت من أجله».

لكن الخصوصية الصنعانية تبقى طاغية، فحين تلاشت «المدرهة» ظلت البقية الباقية منها في صنعاء، والأشعار المتبقية والخاصة بها تحمل نَفَس ورائحة الشعر الحميني الصنعاني، وهي موجودة في كتاب «روائع شعر النشيد الصنعاني» الذي جمعه رئيس جمعية المنشدين اليمنيين علي بن محسن الأكوع.

يقول الأكوع في حاشية كتابه إن المدرهة «من العادات الاجتماعية القديمة التي كادت تنتهي إلاّ في بعض المناطق في صنعاء وما حولها».

على قيد الحياة

□ اليوم بيوت قليلة في صنعاء ما زالت تحافظ على إقامة أراجيحها، وكانت «الثورة» قبل عامين قد تأرجحت في أحد هذه البيوت، ويومها أخبرتها الحاجّة «أم علي» - (٨٧) عاماً - أن الأرجوحة زُرعت في فناء منزلها قبل (١٥) عاماً حين حجّت إلى بيت الله الحرام.

وقالت : «كان المسافر يسير راجلاً إلى بيت الله، ولا أحد يدري هل يرجع أو لا يرجع»، وهي لا تتحدث عن فترة قبل (١٥) عاماً حين حجّت، ولكن تتحدث عن البداية التي ظهر فيها هذا التقليد، وهي بداية لا تعرفها.

تعليق الأراجيح اليوم يقتصر على أيام معدودة، فالحاج - مثلاً - لم يعد يقضي الأسابيع في رحلة الذهاب والإياب من وإلى «البيت العتيق».

وبما أن السفر اليوم تخلى عن الكثير من مخاطره في الماضي، فإن الأراجيح تخلت - أيضاً - عن جزء من لوعتها، وحسب أحمد غنيمة - (٣٨) عاماً، وهو من أحد البيوت الصنعانية التي ما زالت تحافظ على هذه الطقوس - : «نعملها لأننا نفرح بدعاء الحاج لنا حين يعود».

وفي مهرجان المدرهة الأول تذكّرت الدكتورة رؤوفة حسن، في ورقة عمل قدمتها، أن خالتها كانت تارجحها في بيتهم في صنعاء وتنشد أناشيد «المدرهة» حين تحيط بها أحزان ذكرى طفليها اللذين ماتا صغيرين.

يوم السفر

□ كانت المدرهة طقساً روحانياً خاصاً ارتبط في الغالب بالخوف على الأحبة، ومكاناً للبوح بالأحزان، وكانها رغبة في القذف بها بعيداً مع طيران الأرجوحة.

وتتقمص أناشيد «المدرهة» هذه الأحزان واللوعة في أبيات نُظمت على بحر «مجزوء الرجز» في نداءات كثيرة :

أو .. يا مقهوي في «منى» قم قهوي الحجّاج
قم قهوي الحجّاج جميع قاصي ودّاني.
ولقّم الدلّة عسل وبخّر الصياني (الفناجيل)
خنّيت للحجّاج جميع حين عيدهم في مكة
حين عيدهم وسط الحرم وشاربين من زمزم
* * * *
قد جيت أدّره وأعتني لا .. من بلاد بعيدة
لا .. من بلاد خلف الجبال يا ليتها قريبة
قد جيت أدّره ومعتني في حنجك «محبتك» يا الغالي
في حنجك يا حجّنا يا طلّعة الهلالي

مشاهد القلب

□ وفي وصف الحاج وذكر صفاته يأتي في نشيد المدرهة :

ويا .. لمن ذا المدرهة ويا لمن ذا الدّاره (المتأرجح)
لا .. هي لدولة أو لمن لا .. أو لحاكم حكّام
لا .. أو لقاري في الكتب لا .. أو لخط الأقلام
لا .. فيك يا سيد الرجال ويا كحيل الأعيان
لا .. فيك يا نُقس النبات ويا دوا للأسقام
لا فيك يا ظبي الخلا يا أبو الغريب لا جا

ومثل قصائد «الحميّنيات» الصنعانية تبدأ هذه الأناشيد بذكر الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قبل أن تبدأ في التعبير عن اللوعة على الحاج والدعاء له بالعودة سالماً :

بسم الله ابدع يا كريم يا غوث يا رحمن
واثني بقولي بالنبي ذي حقق الإسلام
واثلث بقولي في علي ذي حطم الكفار

وليس هناك صيغة ثابتة للنشيد، فهو يختلف من مكان إلى آخر ومن حاج إلى غيره، تارة يسأل حمامة مكة عن حال حاجه، وهو يعطيها أوصافه بهيام، وتارة يصف لحظات الوداع أو يناجي الحاج نفسه :

يا حجّنا يا حجّنا لا .. أين قدك وأين عادك
قال عادنا وسط الحرم وملتوي لزمزم
لو تيسرونا يا أهلنا يوم الوقوف ما أرحمنا
مخلّسين بأجسامنا وربنا ينظرنا

ومن الطقوس المرافقة لإقامة الأراجيح إلباسها وتزيينها بملابس الحاج نفسه، فإن كان رجلاً ألبست الأرجوحة ثيابه وسلاحه، وإن كانت امرأة ألبست أجمل ملابسها وفستان زفافها.

وفي ورقة عمل قدمتها أروى عبده عثمان فإن المدرهة التي كانت تنصب في فناء بيت الحاج أو أحد جيرانه أو في ساحة القرية، كانت تصنع من الأشجار القوية ويتم توثيق أعمدتها بحبال قوية ومتينة.

ويتحرى الأهل أهمية توثيق ومتانة حبال الأرجوحة لتجنب فال سيئ يحمله انقطاعها - حسب اعتقاد الناس - وفي جزء من نشيد «المدرهة» يشار إلى ذلك :

يا مدرهة سيري سوا لا ترخي الحبال
لا ترخي الحبال السلب فوقك ثقيل غالي

وكانت فترة ما بعد العصر حتى أذان المغرب مخصصة للنساء، فيما يأتي دور الرجال للتأرجح في المساء.

وفي «مسرح الهواء الطلق» في صنعاء القديمة، حيث أقيم مهرجان المدرهة، حدث ذلك مجدداً، وتحول المكان إلى منتزه فريد زاره المئات من القاطنين في صنعاء، وعودة إلى أشيائنا الجميلة، حتى أن عدداً من الأراجيح التي ضمرت في أفنية منازل صنعاء القديمة استعادت حياتها، أو على الأقل تذكر الجميع أراجيحهم القديمة، كما فعلت الدكتورة رؤوفة حسن في ورقة العمل التي قدمتها.

وكان أكثر شيء جمالاً الحماس الذي بعثته الفعاليات في النساء الكبيرات وذوي اللحاء البيضاء من الرجال لينطلقوا في ترديد الأناشيد كما كانوا يفعلون مع آبائهم في الماضي، وقد غنوا بعذوبة وأصوات شجية لا تسمح لك بفعل شيء غير الاستماع والغوص عميقاً جداً في أعماق أعماقك والرجاء بألاّ يتوقفوا.

آخر الأناشيد

□ حين يملأ الشوق إلى الحجيج أرجاء كل شيء ويحاصره حنين إلى اللقاء، تبدأ أذرع الأراجيح بالبحث عن بشرى في كل مكان، وتطير مع ذهابها وإيابها، هبوطها وصعودها، الأفئدة، ويأتي آخر أناشيدها ينشد البشرى في آخر أيام التدره :

«يا مبشّر بالحجيج بشارتك بشارة
بشارتك بير العزب وتلحقه شرارة
بشارتك قصر السلاح وتتبع الوزارة
بشارتك حلقة يدي وسلسلة صدري
يا من يبشّرني بهم بشارته في الجنة..»

«زمـــــان» الأجـــــمل

ليالي العيد.. تجدّد بإيقاع اليوم

تحقيق/عبدالله محمد حزام

□ يشعرك إيقاع العيد ليلاً في صنعاء كما لو أنها مدينة بلا نهار، فالحركة المعتادة للشارع لا تتماهى في العيد - مثلاً - يدهشك إيقاع شارع حدة ليلاً بتشكيلات مفعمة بالمرح والسعادة، الشباب هجروا «مقايل القات» للاحتفاء بليالي العيد بطريقتهم الخاصة، فخلال هذه الليالي يصبح الشارع ليلاً أكثر كرنفالية، فـ «البوفيهات» الأنيقة والنظيفة على امتداد، ومطاعم الأكلات السريعة ذات الطابقين والواجهات الزجاجة «المعتمة» والمفتوحة على مصراعيها للقاءات، عائلية على موائدها، تكسر رتابة الأيام العادية، فيما الشارع بالخارج يضج باصطكاك أقدام الشباب من المتجولين ليلاً، الذين يذرعونه ذهاباً وإياباً دون تعب.

قال شاب زار شارع حدة مع عائلته (للمحرر) : جئنا من الحديدة إلى صنعاء للمرة الأولى، وأعجبنا بالتجوال ليلاً، وخلال يومين قمت بتصوير ثلاثة أفلام، يا لجمال المكان.

وفي بقعة أخرى بقلب صنعاء، يتذكر إبراهيم أبو النصر وهو يقبع تحت مظلة من أسلاك الإضاءة الملونة بجانب نصب «مارد الثورة» بميدان أبطال الشعب، شذرات من ليالي أعياد زمان، يحلف أن المقارنة بعيدة، فقد كانت ليالي العيد حفلات سمر، هكذا يشبهها.

ويضيف : كنا نتناوب الرقص على نغمات العود حتى أذان الفجر في بعض الأحيان، وأخرى نقضيها في المساجلات الشعرية بالعامية والنكات والإنشاد.

أما النساء فلهن قسط أوفر من بهجة ليالي العيد، هذه على سبيل المثال إيمان زهدي، تربوية، تدأب وصديقاتها على استغلال ليالي العيد بشكل أفضل.

شخصياً رمقت مقدار البهجة والسرور في عينيها، وهي تقول : إعداد السكاكر والحلويات ذات الأشكال الجذابة والطعم الرائع أحد سجالاتنا في ليالي العيد، التي تستمر حتى نهايته، أيضاً التفنن في نقش الحناء، إنها ليالي سعيدة جداً.

فكرة جذب الأصدقاء من الرجال إلى ليالي العيد أمر مكلف بالنسبة للبعض، يترسخ هذا الاعتقاد سنوياً في ذهن وليد الصريمي - (٢٣) عاماً - الذي حدثني في مقهى إنترنت وهو يهمس الماوس لدخول دردشة على الشات تستمر لساعات متأخرة من الليل.

قال : إنها أرحم بكثير من التجوال ليلاً في الشوارع، مضيفاً : نفتقد للمتنفسات العامة كالأندية المتعددة الأغراض والحدائق الواسعة والمنسقة، التي لا تطفى عليها كتل الأسمنت لتلتهم ساحات الهواء الطلق بها.

ولا يستلطف فكرة «مداومة» الخروج مع الأصدقاء في ليالي العيد، لأنها - من وجهة نظره - مكلفة، فالمطاعم هي الوجهة الأولى لأصدقائه، وهذا يستنزف ميزانيته المتواضعة كموظف حكومي.

إذاً لنتجه صوب الريف، إنه أكثر أوقات السنة روعة على الأقل بالنسبة لمن يقضون في المدينة سنوات عمل متواصلة. بالتأكيد لن تثنيهم إضاءة المصابيح الملونة التي تضيء المدينة في الأعياد وما تضفيه من بهجة احتفالية على المارة، لأن للريف نكهته الخاصة. هنا يربط حسين المصباحي - (٥٠) عاماً - بين ليالي عيد زمان الريفية والآن. قال : أتذكر مقدار البهجة والسرور الذي كنا نشعر به زمان، كنا لا ننام ليلة العيد، فقد كنا نقضيها في لحظات سعيدة، رقص وعناية خاصة بملابس العيد، خاصة «الصماطة» وسبكها على الرأس، استعداداً للخروج إلى صلاة العيد والذهاب لزيارة الأرحام. ويستمر بهاء ليالي العيد الريفية، التي تمتد في غالبية الأرياف إلى عشرة أيام، يقضى جلها في المسامرة والرقص.

ليس هذا فحسب، بل تنتهج بعض الأرياف تقاليد حميدة في ليالي العيد تتمثل حسب ما يرويه أحمد المسوري، معلم ثانوي، في لقاءات عائلية، خصوصاً بين الأسر التي تربطها قرابة وصلة رحم.

هذا أعظم ما يراه أحمد المسوري في ليالي العيد الريفية، لأنها - على حد وصفه - محطات للمّ الشمل. لكن هل يجرؤ كثيرون هذه الأيام على المغامرة للقيام بزيارة عيدية للريف؟

بالطبع الأمر مكلف، لكنها قد لا تمحى من البرنامج ولو على المدى الطويل.

تصوير/محمد حويس